مسجد المنصور ببغداد

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية
نقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

﴿ وصف المسجد ﴾ ليس لدينا وصف لهذا المسجد الا ما ورد في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي [1] وقد جاء فيه : —

« كان ابو جعفر المنصور جعل المسجد الجامع بالمدينة ملاصقاً قصره المعروف بقصر الذهب وهو الصحن العتيق . وبناه باللبن والطين ومساحته على ما أخبرنا محمد بن علي الوراق واحمد بن علي المحتسب قالا اخبرنا محمد بن جعفر النحوي اخبرنا الحسن بن محمد الكوفي اخبرنا محمد بن خلف قال وكانت مساحة قصر المنصور اربعمائة ذراع في اربعمائة ذراع ومساحة المسجد الاول مائتين في مائتين واساطين الخشب في المسجد يعني كل اسطوانة قطعتين [2] معقبتين بالعقب [3] والغراء وضبات الحديد الاخماس وستاً عند المنارة فإن في كل اسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الاساطين [4] . قال محمد بن خلف قال بن الاعرابي تحتاج القبلة ان تحرف الى باب البصرة قليلا وان قبلة الرصافة اصوب منها [5] . فلم يزل المسجد الجامع [6] بالمدينة على حاله الى وقت هرون الرشيد فأمر هرون بنقضه

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة Salmon القسم العربي ص ٥٩ — ٦١ وترجمته الفرنسية للمانون ص ١٤٥—٧ وترجمته الالمانية طرتسفلد في كتاب البعثة الاثرية ج ٢ ص ١٣٠ — ٧ و Streck ص ٦٣ — ٤ وبغداد تأليف لسترينج Le Strange ص ٣٢—٧

(٢) يرى هرتسفلد ان معنى قوله (قطعتين معقبتين بالعقب) ان القطعتين متصلتان احداهما بالاخرى من طرفيهما اي ان العمود كان يتكون من قطعتين احداهما فوق الاخرى . وهناك امثلة لذلك في الاعمدة الرخامية بسر من رأى فإن كلا منها يتكون من ثلاث قطع

(٣) فسر لين Lane قوله بالعقب بأنه الاوتار العضلية التي تصنع منها اوتار الاقواس

(٤) حذف سترك Streck (ص ٦٣) هذه العبارة التامضة . ونشرها لسترينج Le Strange في كتابه بغداد ص ٣٤ بقوله « كانت اكثر الاعمدة مكونة من قطعتين او اكثر من الخشب متصلتين احداهما بالاخرى من طرفيهما بالغراء وضبات الحديد الاخماس او ستة اعمدة وهي التي كانت قريبة من المئذنة فان كلا منها كان يتكون من جذع واحد من جذوع الشجر وكانت جميع الاعمدة نقلوها تيجان مستديرة من الخشب » . ويقول هرتسفلد ان الفرق بين الاعمدة التي كانت عند المنارة والاعمدة الاخرى هي ان الاول كانت تتكون من قطعة واحدة من الخشب بينما يتكون كل عمود من الاعمدة الاخرى من قطعتين » . وان قوله (في كل اسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الاساطين) هو وصف الاعمدة جميعها . وانه يفهم من قوله « ملفقة الخ » انه يريد تاج العمود . وان هذه التيجان كانت مكونة من عدة قطع متصلة بعضها ببعض كما يشاهد ذلك الآن في التيجان الخشبية الحديثة ببلاد ما بين النهرين وفارس

(٥) انظر أيضاً الطبري جزء ٣ ص ٣٢٢ والمقدسي ص ١٢١ سطر ٧ ، وجاء في ابن الاثير جزء ٥ ص ٤٣٩ سطر ٧ — ١٠ ان انحراف القبلة نشأ من بناء المسجد ملاصقاً للقصر بعد ان تم بناء القصر « وكان القصر غير مستقيم على القبلة »

(٦) البناء الذي خط مسجد المنصور هو الحجاج بن ارطاة . راجع الطبري جزء ٣ ص ٣٢١ ومعجم ياقوت جزء اول ص ٦٨١ سطر ١١ وابن الاثير جزء ٥ ص ٤٣٩ سطر ٧

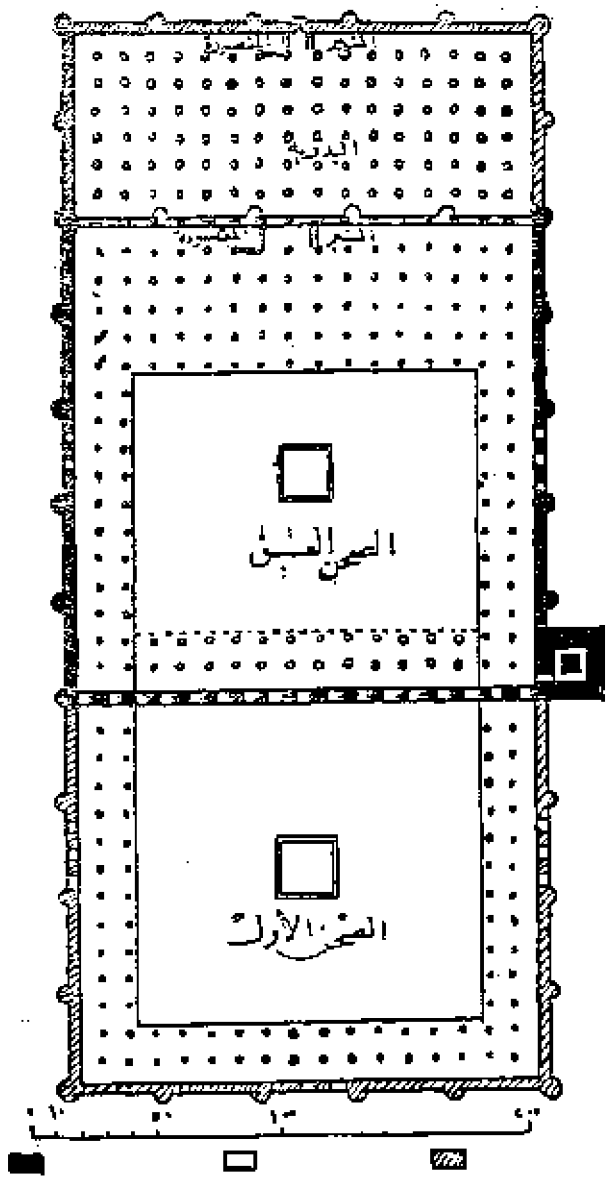

شكل (١)

مسجد المنصور ببغداد
مقياس الرسم

العهد الثالث - من بناء العهد الأول والثاني
السنة ٧٨٤ هـ - وإلى نهاية العهد الثالث
العهدان الأول والثاني
المنصور ١٤٩ ، هارون الرشيد ١٩٢ هـ

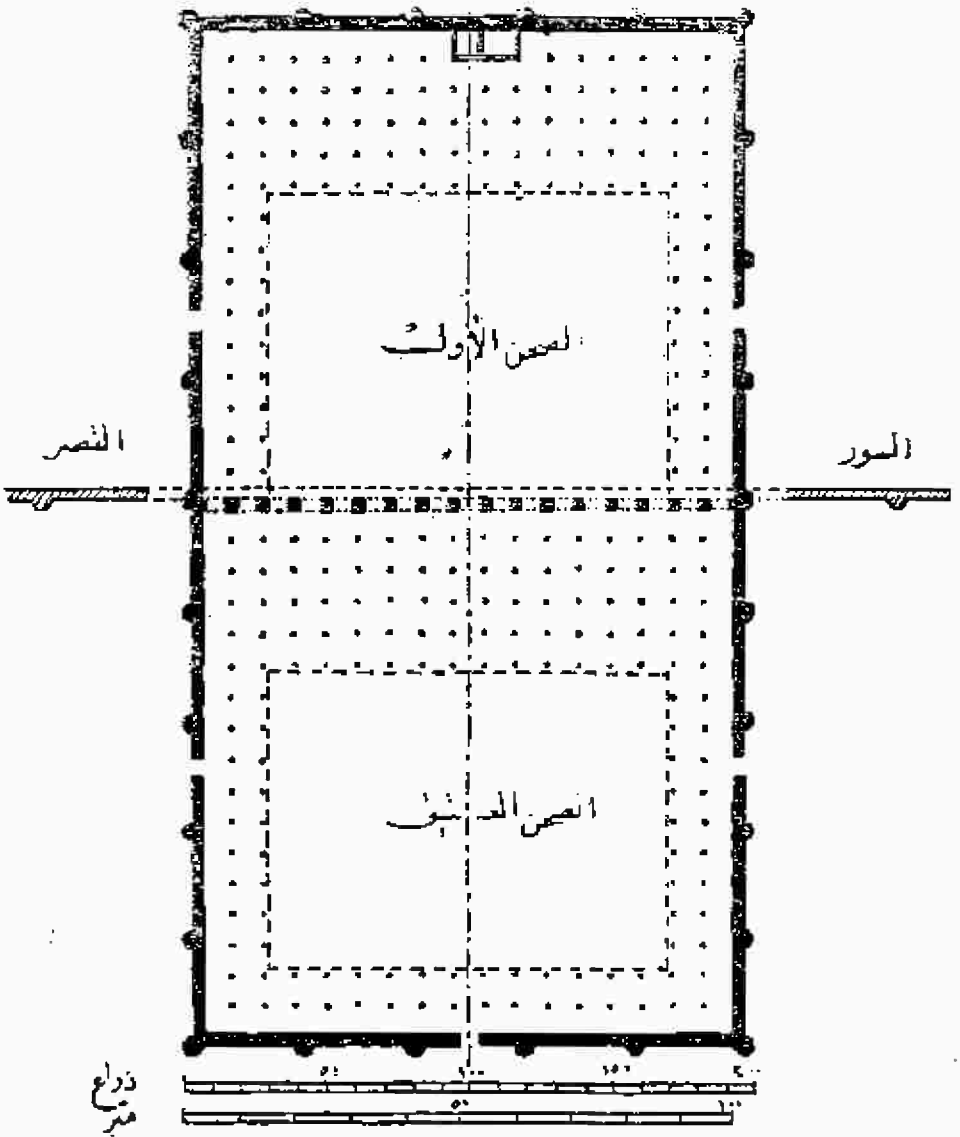

شكل (٩٦)

مسجد المنصور ببغداد
رسم جانبي لمكان كرسولي

واعادة بنائه بالآجر والجص ففعل ذلك وكتب عليه اسم الرشيد وذكر امره ببنائه وتسمية البنّاء والنجّار[٧] وتاريخ ذلك . وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان الى وقتنا هذا . انبأنا ابراهيم بن مخلد اخبرنا اسماعيل الخطبي قال وهدم مسجد ابي جعفر المنصور وزيد في نواحيه وجدد بناؤه واحكم وكان الابتداء به في سنة ثنتين وتسعين والفراغ منهُ في سنة ثلاث وتسعين . فكانت الصلاة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيه الدار المعروفة بالقطان وكانت قديماً ديواناً للمنصور فأمر مفلح التركي ببنائها على يد صاحبه القطان فنسبت اليه وجعلت مصلى للناس وذلك في سنة ستين او احدى وستين ومائتين ثم زاد المعتضد بالله الصحن الاول وهو قصر المنصور ووصله بالجامع وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقاً منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة اربعة . وحوّل المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد . انبأنا ابراهيم بن مخلد اخبرنا اسماعيل بن علي قال واخبر امير المؤمنين المعتضد بالله بضيق المسجد الجامع بالجانب الغربي من مدينة السلام في مدينة المنصور وان الناس يضطرهم الضيق الى ان يصلوا في المواضع التي لايجوز في مثلها الصلاة فأمر بالزيادة فيه من قصر امير المؤمنين المنصور فبنى مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل به فاتسع به الناس وكان الفراغ من بنائه والصلاة فيه في سنة ثمانين ومائتين. قال الخطيب الحافظ وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت »

يستخلص مما رواه الخطيب انهُ كانت هناك ثلاثة عهود في تاريخ بناء هذا المسجد

١ — البناء الاول في عهد المنصور ١٤٩ هـ (٧٦٦ م)

وكان مربعاً طول كل ضلع من اضلاعه ٢٠٠ ذراع (وذلك يساوي ١٠٣٩٦٠ متر باعتبار ان طول الذراع = ٥١٩٨ سم) . وكان مبنيًّا باللبن والطين وعمده من الخشب، يتكوّن كل عمود منها من جذعين متصلين احدهما بالآخر من طرفيهما . وكان سقفه من خشب الساج (كما روى ذلك ابن رسته[٨]) مستوياً ومرتكزاً على هذه العمد الخشبية مباشرة

٢ — البناء الثاني في عهد هرون الرشيد ١٩٢ — ٣ هـ (٨٠٨—٩ م)

وكان يشبه الاول ويساويه في ابعاده مبنيًّا بالآجر والجص وبه كتابة في الجانب الشمالي الشرقي منهُ . وكانت نواة هذا البناء هي الصحن العتيق (الذي هو الجامع)

٣ — وبعد عودة الخلفاء من سرّ من رأى سنة ٨٩٢ م اصبح المسجد يضيق بالمصلين حتى

(٧) يلاحظ هرتسفلد — ص ١٣٦ من كتاب البعثة الاثرية — ان الجدران المحيطة بالمسجد وحدها هي التي أعيد بناؤها بالطوب والمونة وان الاعمدة الخشبية بقيت او استبدل عنها بغيرها من مثيلاتها كما يتضح ذلك من ذكر النجار على مدخل المسجد . ونحن نرى ان ذكر النجار وتسميته لا يستنتج منه حتماً ما استنتجه منه هرتسفلد لان النجار قد احتيج اليه على كل حال في عمل السقف كما انه من المحتمل ان المسجد الجديد كالمسجد القديم كانت أعمدته من الخشب

(٨) ابن رسته ص ١٠٩ سطر ٣ و ٤ يصف ابن رسته هذا المسجد بقوله « انه بني بالآجر والجص ورصع في اساطين الساج وسقف بالساج المرصع باللازورد »

لقد كانت مساحة مسجد سر من رأى أكثر من اربعة امثال مساحته(٩) فاخذ الناس يبنون في بناء مجاور للمسجد . لذلك أمر المعتضد بتوسيع المسجد وازيادة فيه (في سنة ٢٨٠ هـ و٨٩٣ م) فبنى على جزء من ارض قصر المنصور المتهدم مسجد ثان ملاصق لصدر المسجد العتيق على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه وسمى صحنه بالصحن الاول تمييزاً له عن صحن المسجد العتيق

أما الجدار الذي كان يفصل المسجدين فقد هدمت منهُ اجزاء فتحت فيها طاقات توصل بين المسجدين . وقد اشار الى ذلك هرتسفلد نقلاً عن المقدسي — الذي كتب بعد ذلك العهد بقرن — فقد روى المقدسي عن مسجد مدينة فسا بمقاطعة فارس « ان له صحنين كمسجد مدينة السلام بينهما سقيفة » . اما المحراب القديم والمنبر والمقصورة فقد نقلت جميعاً الى المسجد الجديد

ويرى هرتسفلد «ان الصحن الجديد ليس وحده الذي اضيف الى المسجد بل اضيفت اليهِ ايضاً في الوقت نفسه دار القطان التي كانت قد اتخذت مصلى من ٢٦٠ او ٢٦١ . ولذلك لا يمكننا ان نعرف بالدقة مقدار المساحة التي اضيفت »

واضافة دار القطان التي يقول بها هرتسفلد . لم يرد ذكرها في جميع المراجع التي اشارت الى هذا المسجد . وسنرى عند مناقشتنا هذا الرأي استحالة التسليم بهِ

ونظرية هرتسفلد في تصميم بناء هذا المسجد هي كما يلي : —

ان فتح سبعة عشر طاقاً في الحائط الذي كان يفصل بين المسجدين — ثلاثة عشر منها الى الصحن واربعة الى الاروقة الجانبية — يدل على ان المسجد القديم لا بد كان يحتوي على سبعة عشر رواقاً من اليسار الى اليمين . وان الاروقة الجانبية كانت اربعة بكل جانب رواقان . وهذا يساعدنا على امكان تصميم هذا البناء وتقسيم الـ ٢٠٠ ذراع وهي طول ضلع المسجد كما يأتي : —

جدران وابراج مستديرة ٢	٢ × ٧٫٥ = ١٥
١٧ مسافة بين الاعمدة كل منها ٩ اذرع	١٧ × ٩ = ١٥٣
١٦ عموداً كل منها ذراعان	١٦ × ٢ = ٣٢
الجملة	٢٠٠ ذراع

غير أن عدد أروقة الايوان الكبير بالمسجد يبقى مجهولاً . ولكن نظراً لان الايوانين الجانبين يحتوي كل منهما على رواقين فلا يمكن ان تقلَّ اروقة الايوان الكبير عن اربعة . ويرى هرتسفلد انها لا بد كانت خمسة كمسجد الكرفة الذي كان هو الآخر مربعاً . ولان النسبة ١٧ : ٥ توجد ايضاً بمسجد ابن طولون بمصر

(٩) كانت مساحة مسجد سر من رأى ٢٥٠ × ١٦٧ = ٤١٧٥٠ متر مربع بينما مساحة مسجد بغداد ١٠٣٢٦ × ١٠٣٢٦ = ١٠٦٧٣٣ متر مربع أي ان مسجد سر من رأى قدر مسجد بغداد اربع مرات وقد ذكر هرتسفلد (في الجزء الثاني ص ١٣٧) سهواً ان مساحة المسجد الاول قدر مساحة المسجد الثاني ٢٥ مرة والحقيقة أنها اربعة فقط

ويقول هرتسفلد « أما عن ازالة الاروقة الشمالية الغربية فأمر لا يزال قيد البحث . فالخطيب يروي في تاريخه ان ثلاثة عشر طاقاً فتحت الى صحن المسجد وهذا يفهم منه ان الاروقة قد ازيلت. الا ان وجود السقيفة التي يشير اليها المقدسي بين صحني مسجد فسا يجعل نرفض هذا الرأي وخاصة لان المقدسي قد ذكر الشبه بين مسجد فسا ومسجد المنصور في نفس العبارة »

وعلى ذلك فقد رسم هرتسفلد هذا المسجد وما ادخل عليه من التعديلات كما هو موضح بشكل (١) وتتلخص نظريته في ان المسجد بني ملاصقاً لجانب الجنوبي الغربي من سور القصر وان الجزء الذي اضيف اليه وهو الصحن الاول قد اضيف الى صدر المسجد وهو يريد بالصدر الجانب الشمالي الشرقي — وان سبعة عشر طاقاً فتحت في الحائط لايصال المسجدين احدهما بالآخر وان دار القطان اضيفت في الوقت نفسه الى المسجد من ناحية القبلة وان سبعة عشر طاقاً اخرى فتحت في حائط القبلة لايصال دار القطان بالمسجد والى هذه الزيادة الاخيرة نقل المحراب والمقصورة والمنبر

ورسم هرتسفلد للمسجد الاول متنع الا في نقطة واحدة مثيرة للدهشة هي ان جدار القبلة بالمسجد ليس ملاصقاً للقصر لتمكين الخليفة من الذهاب من القصر الى المقصورة « بعد مباشرة والدخول من الباب الذي كان يوجد عادةً في جدار القبلة كما كان ذلك متبعاً منذ القرون الاولى للاسلام [١٠] وهذه الملاحظة وان كانت بالطبع لا تكفي لتسويغ رفض رسم هرتسفلد ولكنها على كل حال تدعو الى الشك فيه

على اننا اذا عالجنا الموضوع بدقة فاننا نجد عيوباً أخرى في هذا الرسم . فان دار القطان التي كانت من الاماكن التي لا تجوز في مثلها الصلاة . والتي وسع المسجد وزيد فيه تحسباً للصلاة فيها قد اضافها هرتسفلد في رسمه الى المسجد . ومن الواضح ان ذلك استلزم فتح صفين من الطاقات في جداري المسجد العتيق كل منهما سبعة عشر طاقاً يصل اولهما بينه وبين الصحن الاول وثانيهما بينه وبين دار القطان . مع ان الخطيب قد ذكر ان الذي فتح هو صف واحد فقط من هذه الطاقات . ويتضح من الرسم ايضاً (شكل ١) ان المحراب والمنبر والمقصورة قد نقلت الى دار القطان بينما يروي الخطيب انها نقلت الى المسجد الجديد . فاذا كانت دار القطان قد اضيفت فعلاً الى المسجد (وابيحت الصلاة فيها) فلماذا اذن اضيفت الزيادة الاخرى الى المسجد في الوقت نفسه ؟ لاشك انهُ من المتعذر تعليل ذلك

على اننا لانجد مطلقاً في جميع المراجع التي لدينا اية اشارة الى أنَّ دار القطان قد اضيفت فعلاً الى المسجد بل ان الغرض من الزيادة في المسجد انما كان للاستغناء عنها. اذن فلماذا أضافها هرتسفلد ؟

اننا نعتقد انهُ اضطرَّ لذلك ليتغلب على الصعوبة التي قامت في وجه نظريته بسبب ما رواه الخطيب عن نقل المحراب والمنبر والمقصورة الى المسجد الجديد . وان هذا يثبت ان المسجد الجديد لا بدَّ

(١٠) انظر كتاب العمارة الاسلامية للكتور كرسويل جزء ١ ص ١٨ — ١٩

قد أضيف الى المسجد القديم من جانب القبلة لان المحراب لا يمكن نقله بطبيعة الحال الى جانب آخر بالمسجد سوى جانب القبلة

ولكن هرتسفلد في الوقت نفسه قد اوضح في رسمه ان المسجد الجديد لم يضف الى جانب القبلة بل الى الجانب الآخر المواجه له وهذا بطبيعة الحال لا يستلزم نقل المحراب والمنبر والمقصورة

فتعقيباً على الصعوبة التي اعترضت هرتسفلد ازاء رواية الخطيب عن نقل المحراب الخ انبطر الى القول بأن دار القطان قد ادخلت ايضاً في المسجد في نفس الوقت ونقل اليها المحراب والمنبر والمقصورة

اما نحن فلا نقر هذه النظرية بل اننا نؤكد ان كل ما ذكره الخطيب في هذا الشأن هو قوله « ان المسجد بني ملاصقاً للقصر » دون تحديد الجانب الذي بني فيه وبناء على ذلك فلنا ان نختار الموضع الذي نعتقد انهُ اكثر ملاءمة والذي يرجح انهُ بني فيهِ ثم لننظر الى اي حد يمكن ان يتفق هذا الوضع مع الحقائق التي نعلمها عن هذا المسجد

ونحن نرى ان المسجد الجديد بني ملاصقاً لجانب القبلة[11] ويعزز رأينا هذا ما يأتي :—

اولاً — قول الخطيب « وكتب عليه (اي المسجد) اسم الرشيد وذكر امره ببنائه وتسمية البنّاء والنجّار وتاريخ ذلك وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان »

وهذه الكتابة كانت بلا شك على المدخل الرئيسي للمسجد الذي كان يقع بالجانب القريب من باب خراسان اي في الشمال الشرقي

ثانياً — يقول الخطيب عن الزيادة التي ادخلت في المسجد

(ا) « ففي مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل به فاتسع به الناس الخ » . والصدر هنا هو المكان المواجه للمدخل او البعيد عن المدخل او هو في الحقيقة ما يجب ان نسميه مؤخر المسجد (او الايوان الكبير)

(ب) ويقول ايضاً « ثم زاد المعتضد بالله الصحن الاول وهو قصر المنصور ووصله بالجامع وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقاً منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة اربعة وحول المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد »

فاذا فتحنا الطاقات في حائط القبلة واضفنا الى المسجد العتيق مسجداً على مثاله في مقداره او نحوه — عدا الرواق الشمالي الشرقي الذي ليس ثمة حاجة اليهِ — ونقلنا المحراب والمنبر والمقصورة الى هذا المسجد الجديد ، فاننا نجد ان هذا يتفق تماماً ورواية الخطيب ، ويتضح ذلك جلياً في الشكل رقم (٢) ولا تكون ثمة حاجة الى القول باضافة دار القطان الى المسجد في حين ان الغرض الاساسي من الزيادة في المسجد انما كان هو الاستغناء عنها

(١١) يضع لسترنج هذا المسجد في الجانب الجنوبي الشرقي وهو رأي لا اقره عليه (بغداد ٣٥)

وقد روى ابن رسته ان مسجد المنصور كان مزخرفاً ومرصعاً باللازورد[١٢] وهو فاتح يشير بقوله هذا الى المسجد الذي رآه في سنة ٩٠٣ م والذي لا يرجع اقدم جزء فيه الى اكثر من عهد هرون الرشيد (التاريخ اللاحق للمسجد) ورد ذكر هذا المسجد كثيراً في قرون تالية : فقد أشار اليه Benjamin of Tudela[١٣] سنة ١١٦٠ بقوله « وكان الخليفة يغادر قصره مرة واحدة في السنة حين كان يذهب في حفل رسمي الى المسجد الجامع عند باب البصرة »

كما ذكره ابن جبير سنة ١١٨٤[١٤] ويظهر انهُ لم يصب بسوء عند ما حاصر المغول بغداد وهاجموها ونهبوها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) مع ما تعرضت له بغداد من التخريب وما طالته من اهوال . ويستدل على ذلك بعدم ورود اسمه بثبت المساجد والاضرحة التي احرقت بسبب الحرب ثم اعيد اصلاحها بامر هولاكو خان[١٥] وذكره ابن بطوطة[١٦] بصريح العبارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م) عند وصفه للشاطىء الغربي وقال عنهُ انهُ مسجد ابي جعفر المنصور وانهُ كائن بحي باب البصرة

ويرى لسترينج[١٧] Le Strange ان تيمورلنك استولى على بغداد (٧٩٥ هـ ١٣٩٣م) وانهُ امر بعد عام باعادة بنائها وان المسجد قد يكون هدم اثناء ذلك الا اننا نجد بدرو تايكسيرا[١٨] Pedro Teixeira سنة ١٦٠٤ يقول « ولا نزال نرى في بغداد اطلال المباني الرائعة التي خلفتها عصور الحضارة الفارسية كالمسجد الذي يطلقون عليه اسم مسجد الخليفة والآثار الاخرى في الجانب الآخر من النهر والمدرسة التي كانت مستشفى الخ »

ويظهر ان « مسجد الخليفة » هذا هو مسجد المنصور الذي نحن بصدده . وخاصة لقوله عن الآثار الاخرى انها « في الجانب الآخر من النهر كالمدرسة التي كانت مستشفى » ونظراً لاننا نعلم ان المدرسة المستنصرية كان بها مستشفى وكانت تقع على الشاطىء الشرقي . فيستنتج من ذلك ان المسجد كان يقع في الجانب الغربي للنهر . وهذا بالضبط هو موقع مدينة بغداد المدورة التي بناها المنصور وبنى بها مسجده العتيق . ويظهر ان هذا المسجد قد تخرب واحت آثاره نهائياً بعد زيارة تايكسيرا بغداد بعشرين عاماً لان مرتضى نظمي زاده[١٩] يقول : — « وبعد ان استولى الفرس على بغداد سنة ١٠٣٣ هـ ١٦٢٣ — ٤ م فعلت فيها يد التخريب والتدمير فهدمت المدارس والمساجد وغيرها من آثار الخلفاء العباسيين واصبحت اطلالاً ينعق بها البوم او اتخذت حظائر للحيوانات بعد ان شهدت حضارة العباسيين وحفلت بذكراهم » . لذلك لا نجد ذكراً لهذا المسجد فيما كتبهُ نيبوهر[٢٠] Neibuhr عن بغداد سنة ١٧٦٥ مما يدل على انهُ لم يكن له أثر ببغداد عند زيارة نيبوهر لها

(١٢) ابن رسته ص ١٠٩ سطر ٤ (١٣) Benjamine of Tudela ترجمة Asher جزء ١ ص ٩٦ — ٧
(١٤) ابن جبير طبعة Wright ص ٢٢٧ و ٢٣٠ وطبعة دوزيه ترجمة شيابارللي Schiaparelli ص ٢١٤ و ٢١٧ (١٥) لسترينج ص ٣٢ (١٦) ابن بطوطة جزء ٢ ص ١٠٢ (١٧) لسترينج ص ٣٧
(١٨) ترجمة سكلير ٦٤ — ٥ (١٩) ترجمة هوارث في كتاب تاريخ بغداد في العصور الحديثة ص ٥٩
Histoire de Baghdad dans les temps modernes,59
(٢٠) رحلة في بلاد العرب جزء ٢ ص ٢٢٩ Voyage en Arabie